سيميائية العنوان لقصيدة نازك الملائكة "أغنية للإنسان"

أ/ جريوي آسيا
قسم الأدب العربي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة محمد خيضر، بسكرة

تقديم:

لقد تربع العنوان على عرش القصيدة العربية إبان عصر النهضة، ليصبح بذلك رأس على علم القصيدة، سواء أكانت عمودية أمن نثرية، وبدأ الاهتمام بالعنوان على يد التلوث المشهور "محمود سامي البارودي، وحافظ إبراهيم، وأحمد شوقي". [1] ويعود هذا الاهتمام باعتباره أولى عتبات النص، بل العتبة الحتمية التي لابد من المرور عليها، فالعنوان يعلن عن القصيدة النص كاشفا بنيته الباطنية.[2] فهو جماع الوحدة الدلالية الكبرى للعمل[3]، ويعرفه محمد مفتاح بقوله: "إن العنوان يمدنا بزاد ثمين لتفكيك النص في دراسته، ونقول هنا: إنه يقدم لنا معرفة كبرى لضبط انسجام النص، وفهم ما غمض منه إذا هو المحور الذي يتوالد ويتنامى ويعيد إنتاج نفسه، فهو إذا صحت المشابهة بمثابة الرأس للجسد، والأساس الذي ينبني عليه، غير أنه إما أن يكون طويلا فيساعد على توقع المضمون الذي يتلوه، وإما أن يكون قصيراً وحينئذ فإنه لا بد من قرائن لغوية توحي لما يتبعه."[4]

وبذلك فقد أولت السيمياء أهمية كبرى للعنوان باعتباره مصطلحاً إجرائياً ناجحاً فمقارنة النص الأدبي ومفتاحاً أساسياً يتسلح به المحلل للولوج إلى أغوار النص العميقة قصد استطاعتها وتأويلها.

وعلى هذا الأساس فقد أصبح العنوان بؤرة للوعي الشعري ومركزاً للتفاعل والمواجهة مع الواقع المظلم.[5] فهو الخطوة الأولى من خطوات الحوار مع النص وعلاقته به، كعلاقة المسند بالمسند إليه، وحسب كوهين "Kouhin "، يرتبط العنوان بالنثر

والانسجام والوصل والربط المنطقي، بينما الشعر يمكنه الاستغناء عن العنونة والتسمية. ما دام ينبني على الالتساق والانسجام،[6] ويمكن أن نستخلص البعد العميق للقصيدة من خلال سيميائية العنوان. وهذا ما سنقف عنده في دراستنا للعنوان لقصيدة نازك الملائكة.

تتوج قصيدة نازك الملائكة بعنوان "أغنية للإنسان" يمثل مفتاح القصيدة ويقف العنوان في علاقته باللوحة الشعرية تماماً كالمسند والمسند إليه كالآتي:

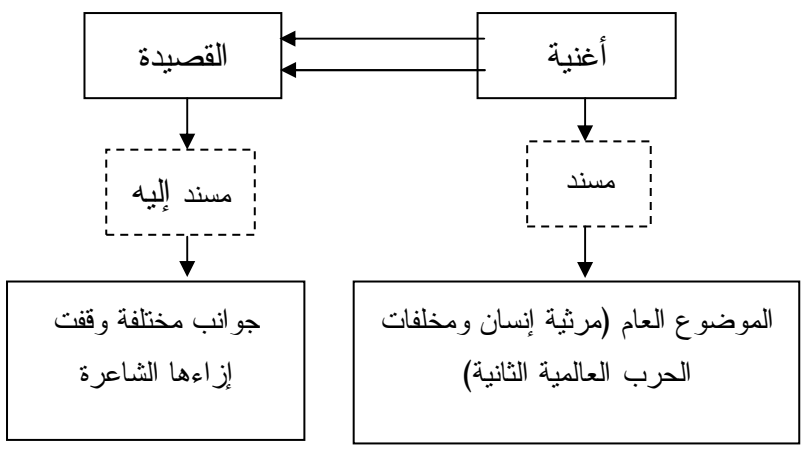

إن العنوان يكشف عن دقة عمل الشاعرة، إنه قمة البنية الهرمية في القصيدة، فهو الاسم الذي يحمل بعداً تبشيرياً وطاقة كونية، والأمر يدعونا للمرور إلى نسيج العنوان واستقراء مكونة ومحاولة استجلاء تصميمات هندسية.[7] (أغنية) لمن هذه الأغنية؟.

ومن صاحبها؟ تستوقفنا الشاعرة أمام هذه اللفظة التي انتشلتها من معجمها اللغوي التي كانت تدل عليه وألبستها حلة جديدة نستشفها بعد استقراء القصيدة فتكشف ضبابية الكلمة لتدل على مرثية حزينة، وكما جاء في المعنى المعجمي أنها تعني في مادة (الغنة)[8]: صوت في الغيشوم، وواد (أغن) كثير العشب، فاللفظة بعد أن كانت تدل على رقة الصوت العذب في الغناء، دلت على مؤشر الأنين والأصوات الحزينة من شفاه الضحايا واليتامى و(أغن) كثرة العشب دلت على كثرة الأصوات وتعددها وتنوعها من شيوخ وصبايا وأطفال وثكلى، ويجدر بنا القول إن (الأغنية) كلفظة بسيطة دلت على معاني عميقة، قامت الشاعرة بالتعبير عنها في هذه اللوحة الشعرية.

فالشاعرة وهي ترصد هذه التوقيعة الشعرية إنما تكشف عن كهوفية فكرها، فاقتناء الشاعرة لهذه الألفاظ له دلالات مكثفة لقد انتشلت المعنى المتعارف عليه للفظة (الإنسان)*، تؤكده فحافظت على المعنى لتثبت أنه نسي أول جريمة، وارتكبت أشنع منها نسي قصة قابيل وهابيل، فهل فقد الإنسان الإحساس بأخيه؟ ألا تهزه المشاعر لنصرته؟ ألا يتأثر بتلك المأساة الإنسانية؟.

إن الشاعرة بانتقائها لهذا التآلف في العنوان، إنما يدل على الملكة في خلق لغة فنية، حيث زعزعت المعنى العادي البسيط للغة فأبدعت صورة جمالية ذات ملبس دلالي جديد، ولتكون دراستنا لهذا العنوان أكثر عمقاً، سنحاول وصفه وتحليله بدءاً بالمستوى الصوتي فالتركيب فالدلالي.

إن المتمعن في العنوان يلحظ على المستوى الصوتي غلبة الأصوات المجهورة وهي (الألف، الغين، النون، الياء، اللام)، دون الملموسة التي تمثلت في الصوتين: (التاء والسين) وبما أن الشاعرة في موقف التنفيس عن الذات، في لحظة غضب وانفعال، كان الصوت القوي وسيلة منها لإخراج المكنون الداخلي، لعلها تُسمع البشرية معاني كلماتها، ربما يطل السلام، ويحل الأمن والاستقرار وتصغي الآذان لكلمة الحق والعدالة، ولتحديد مقاطع العنوان نجده يلم على ستة مقاطع هي:

أغنيـــــــةْ	/	للإنســـان
ص ح ص + ص ح + ص ح ص	/ ص ح ص + ص ح ص + ص ح ح ص	
مقطع متوسط + مقطع قصير+مقطع متوسط	/ مقطع متوسط	مقطع متوسط مقطع طويل
مغلق مغلق	مغلق	مغلق مغلق

وفي دراسة التركيب نجد العنوان بنية متماسكة، فعلى الرغم من بساطته ووضوحه، إلا أنه يحمل معنى عميق ودلالة خفية نصل إليها بعد استقراء وتبديد كتل التراب الراسبة في ثنايا القصيدة، إن العنوان بنية مركبة جملة اسمية مكونة من مبتدأ وخبر، إذا جاء الخبر فيها شبه جملة متكونة من جار ومجرور في محل رفع خبر للمبتدأ (أغنية) المرفوع بالضمة الظاهرة على آخره، وحرف الجر رابط بين الكلمتين، يقيد الكلمة ويوجهها إلى الإنسان في كل زمان ومكان ويتمفصل العنوان كالآتي:

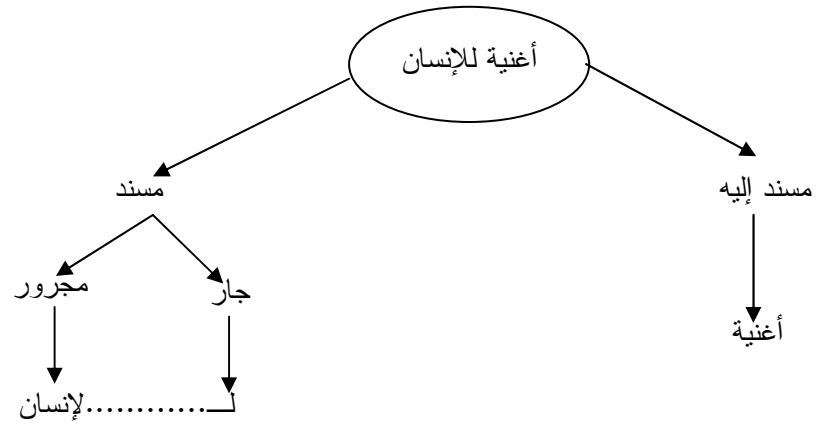

ومن الناحية الدلالية فإن العنوان يحمل عدة معاني فهي الوحدة المعجمية "أغنية" تشير إلى معاني سارة منها النشوة والطرب والارتياح، والترنم،...الخ. أما في الوحدة المعجمية "الإنسان" فهي مؤشر للعقل، والحكمة والمشاعر والأحاسيس...الخ. فكلمة أغنية جاءت في الصدارة، وهذا لأهميتها، ولعل هذه اللفظة تستدعي في الذاكرة الاسترجاع والانفتاح حيث نستذكر عنواناً يماثلها، ألا وهو (أغنية الموت) لتوفيق الحكيم، و (أغنية الجندول) لعلي محمود طه، وهي بذلك تتناص مع عناوين سابقة فهو تناص خارجي استحضرت من خلاله الشاعرة نصوصاً غائبة في نصها الحاضر.

فحول هذا العنوان تحوم وظيفة الأغراء وشد الانتباه، وهي أحد الوظائف الأساسية للعنوان التي قدمها (جنيت): Genette إذ بمجرد سماع لفظة (أغنية) نتساءل مباشرة ما نوعها؟ وهذا ما يجيبنا عنه النص بعد فك شفراته، وتحليلها، حيث تزاول تلك الضبابية، وتتكشف البنية الخفية للعنوان الذي يدل على مرثية حقيقية، وتماسك كتابة العنوان يدل على ، تماسك نفسية الشاعرة المشحونة في الآلام العميقة ، فبالرغم من ضبابية العنوان وإخفاء البنية العميقة، إلا أن القصيدة تفجر تلك المعاني المكتنزة بأول كلمة، تقول في الفاتحة النصية: (خفيف).

في عميق الظلام زمجرت الأم * طار في ثورة وجن الوجود.[9]

والمتمعن في هذه الفاتحة يلحظ أن الشاعرة تلتحم مع الطبيعة في ذات واحدة، حيث ترى الطبيعة كمهرب أو منفذ تلجأ إليه لتفجر تلك المكنونات الداخلية، فالعنوان والقصيدة كالهدوء الذي يسبق العاصفة، فترسم لنا ذلك الانتقال من صمت وسكون الوجود إلى غضبه وثورته وهي حالة سيميائية للوضع الذي كان سائداً في وطنها من حياة سعيدة هادئة إلى ثورة الوطن، حتى قهقهات مدافع الموت التي تدمر كل أخضر ويابس.

وعلى الرغم من بساطة العنوان لفظا وشكلا إلا أنه حامل لمدلولات قوية عميقة بعمق نفسية الشاعرة نستشفها أكثر من خلال تحليلنا للقصيدة، التي تعد رسالة للبشرية تحكي مرثية الإنسان على وقع الحرب العالمية الثانية، فهي صرخة الأموات المدوية والمرضى والجرحى، ووقع خطى الماشين في موكب الجنائز ورافعة أصواتها للبشرية لتحقيق السلام والحرية.

الهوامش:

1- محمد كعوان، سلطة النص في ديوان البرزخ والسكين للشاعر عبد الله حمادي، منشورات نادي الأدبي، جمالية الأدب والعلوم الإنسانية، قسم الأدب العربي، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر،ط1، 2001، ص272.

2- حسن محمد حمادة، تداخل النصوص في الرواية العربية، بحث في نماذج مختارة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1998، ص 59.

3- مفيد نجم، العنوان الأدبي، وسيميو طبقيا الاتصال بحث وظائف وفاعلية الدلالية، الأسبوع الأدبي، العدد 666، 1999، ص3.

4- محمد مفتاح، دنميات النص، تنظير وإنجاز، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 1990، ص72.

5- محمد كعوان، سلطة النص في ديوان البرزخ والسكين للشاعر عبد الله حمادي، ص 273.

6- جميل حمداوي، السيميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر في الأدب والنقد، مجلد 25، العدد 3، الكويت، مارس 1997، ص98.

7- محمد كعوان، سلطة النص في ديوان البرزخ والسكين للشاعر عبد الله حمادي، ص 274.

8- الرازي مختار الصحاح، ضبط وتخريج وتعليق مصطفى ديب البغاء، جامعة دمشق، دار الهدى للطباعة والنشر، ط4، 1999، ص 310.

* - سمي إنسان لأنه عهد إليه فنسي، ينظر: م ن/ ص 310.

9- نازك الملائكة، الديوان، المجلد الأول، ط2، دار العودة، بيروت، 1981، ص 243.